نمو الأدب الأمريكى

[كتب هذا المقال لمجلة « الكاتب المصرى » خاصة ، كتبه الناقد الأمريكى الدكتور هنرى سايدل كانبى المولود سنة ١٨٧٨ وقد تعلم فى جامعة ييل وحصل على درجة دكتور فى الفلسفة ثم دكتور فى الآداب واشتغل بالتعليم وتولى تحرير عدد من المجلات الأدبية الشهيرة ووضع أكثر من خمسة وعشرين مؤلفاً فى النقد الأدبى والتراجم وقواعد اللغة واشترك فى الكتابة لدائرة المعارف البريطانية] .

شهد العقدان الثالث والرابع من هذا القرن فى الولايات المتحدة ، قوة ونضجاً ظاهرين فى الفن الأدبى ، لم يكونا نتيجة للعلامات التى نزلت بالعالم فى جملته . ذلك أن الكتّاب الأمريكيين ، وقد أحسوا بقوة القارة التى يستندون إليها ، احتذوا فى نضجهم ما فعل كتاب نيو إنجلند من قرن مضى . وكان أن فاقت القصة الأمريكية فى مهارة الصنعة الفنية أى خلق روائى كتب من قبل ، حتى ما كتبه أساطين القرن التاسع عشر . وتناول أدب السخرية الأوجه الجديدة للحياة الصناعية ، التى كانت الولايات المتحدة خير من يمثلها ، وكسبت فيها شهرة دولية وداخلية . وبالرغم من بروست فى فرنسا وجويس فى إيرلندة ، وجالسورثى العظيم فى انجلترة ، أولئك الذين تشرّب الكتاب المجددون أساليبهم الفنية ، فان الأدب الأمريكى من شعر ونثر ومسرحيات بدا كأنما يسير نحو ازدهار ، على حين بدت الآداب الأخرى كأنها تذوى وتزول ؛ وهذا ما شعر به الأوربيون أيضاً . وبلغ الشغف بالقراءة بين الجمهور المتعلم فى أمريكا مستوى لم اجده قط إلا فى دوائر محدودة من المثقفين ثقافة عليا فى انجلترة أو فى القارة الأوربية ، فكانت مرحلة نضوج وفترة نهضة تاريخية ازدهرت فيها المواهب والأفكار التى كانت تنمو من زمن .

وحينما استولى على مقاليد الحياة الأدبية الجيل الجديد، الذى لم تفجأه الحرب العالمية الأولى مفاجأة بغيضة، بدا واضحاً أن الكتاب الشبان يحسون أنهم إنما يجتازون فترة انتقال. فنرى أن الكتّاب الذين برزوا حوالى سنة ١٩٢٠ مثل سكوت فيتز جرالد من الروائيين، وروبنسون جفرسن من الشعراء، وشيروود أندرسون من كتاب القصة القصيرة، يوضحون لكل ذى بصر أن طريقة الحياة الأمريكية تعوزها الثقة.

ووصف سكوت فيتزجرالد، وهو لا يزال طالباً بالجامعة، حياة الشباب الجديد من جيله وهم ينحرفون بعيداً عن مُثُل آبائهم الأخلاقية. ويسيرون نحو نوع من الفوضى الفكرية. وأبرز روبنسون جفرسن، الشاعر الذى يصف الحياة فى زيف كاليفورنيا، ذلك الجانب من الاحتلال العصبى العجيب الذى كثيراً ما ظهر فى الآداب الأمريكية من قبل، كما يرى واضحاً فى هاوثورن وملفيل وپو. وهاجم شيروود أندرسون القصاص، الأثر المميت لعصر الآلة بأمريكا فى حياة العواطف.

وقد تعدلت تماماً قيم العصر الڤيكتورى الخلقية بالواقعية الجديدة للشبان الناشئين الذين تزعّمهم همنجواى، فكان رد فعل عاطفى عارضَ حتى ما كان معدوداً لدى الكتاب الساخرين من القيم الثابتة التى دعمتها الخبرة.

ويرى همنجواى وجيله أن الحياة الأمريكية فى أسسها وفى ظواهرها حياة لا تطمئن. وهمنجواى أمريكى خالص، رغم اختلاله العصبى، وهو رقيق القلب فى عرضه للشقاء الفردى وإن يكن كالحيوان الذى يعض جراحه، بدأ مذهباً للوحشية كأنه يعتزم تحطيم تلك المثالية الأمريكية السهلة ليرى ما تخفى تحت سطحها. واستولت عليه تلك الحالة التى استولت على الشباب الأوربى مما يسمونه إخفاق كل القيم المتوارثة؛ فقد نهج سبيل «ثورو» لاهتلر، وأيد حقوق الفرد أمام الدولة.

وبينما نجد سنكلر لويس يهاجم المجتمع بأسره لجموده ولضيق أفقه، نجد همنجواى يملأ كتبه بأنواع من الشخصيات الانسانية الجديدة هم فى الأغلب فرديون لا اجتماعيون، رجال ونساء ممن تصدم تجاربهم القراء العاديين وإن كانوا بلا جدال صادقين نحو أنفسهم مثلما هم مأثورون.

لقد ترعرع هؤلاء الكتاب الأمريكيون المحدثون فى أوقات الحرب ولم

يعرفوا قط عصر الاستقرار والثقة . ومهما تكن فلسفتهم الشخصية فقد بدأت تواجه موجة جارفة من الأحداث الخارجيـة اجتاحت أوربا ناشرة ديانة جديدة خبيثة هى عبادة القوة . ورأوا فى الداخل كيف تكاد عوامل التفكك والانحلال تطفو على السطح وتتحفز للانطلاق .

وقد قرأ الجميع بعضاً من هذا الذى سمى أدباً عنيفاً ، ولـكن الذين نفذوا إليه بوصفه ظاهرة خلقية قليلون . فكان أشد من احتجوا عليه الوعاظ والأخلاقيون المحترفون .

وهذه الـكتب الجديدة التى ظهرت فى العقد الرابع ، ابتكرت اصطلاحاً جديداً وأسلوباً جديداً ، وإن كانت كلمة أسلوب هى آخر ما ينطبق عليها . فإن القاعدة التى كانت سائدة حوالى سنة ١٨٩٠ وهى أن يكون القول جميلا قد تغيرت فيما يبدو إلى العكس ، وأصبح التعبير كلمة جديدة فى المعنى الذى استعمله توماس وولف ، وهو التعبير عن كل شىء . وقد أهمل هؤلاء الـكتاب الشكل تماماً إلا فى فن أمريكا الوطنى وهو فن القصـة القصيرة . والحقيقة أن الروايات وعدداً قليلا من المسرحيات الجيدة ، وسيل الشعر العادى فى أواخر العقد الثالث ، كانت تحمل كل علامات مرحلة جديدة لـكـتّاب لا زالت أقلامهم مترجحة مضطربة ، ولم يسيطر خيالهم بعد على مادتهم الخصبة . هذا مع استثناء « ستيفن فنسنت بنيت » الذى وصل بالطور الثانى للأدب الأمريكى الذى يحتذى القـديم إلى قمته ونهايته فى قصيدتيه الطويلتين عن تاريخ أمريكا وهما «جسد جون براون» و « نجمة الغرب » . وآثاره هى وحدها التى تثبت أن فترة التحول بلغت نهايتها .

ولم يؤثر كثيراً الصراع المذهبى السياسى الذى ساد العالم ، ومزق أوصال الأدب الأوربى ، فى هـذا الأدب الأمريكى الحديث . ولقد تبين خطر هذا النضال على أمريكا فى شعر الـكتاب الأمريكيين من أمثال بنيت الذين يتبعون الطريق القديم ، أكثر مما تبين لدى الـكتاب الثائرين . ففى محاولتهم تصوير حياة أمريكا الدافقة شىء سليم ناشىء معنىً بذاته . . . أزاح النضال المذهبى بعيداً لا لأنه لا يستحق التفكير فيه ولـكن لأنه لا جدوى منه فى قطر لا زال يحفل بالتجارب لتحقيق فرص للجميع ، ولا زال على ثقة بمستقبل قوى زاهر .

وكانت هذه هى السنوات التى شاهدت اتجاه كتاب أوربيين ، بينهم كتاب من الانجليز ، فى شغف وتعطش نحو مسرح الحياة الأمريكية ، وإن كانت كتبهم

لم تتخط فى أهميتها مجرد قيمتها الاخبارية عن أمريكا ، ولكنهم كانوا الفوج الأول لمهاجرين ممتازين كتوماس مان وهرمان بروك وفرانز ڤرفل وعشرات غيرهم ممن هربوا قبل العاصفة على ألمانيا ، وغرسوا جذوراً جديدة فى الولايات المتحدة وتابعوا بل قووا إنتاجهم الأدبى .

وذهب الملل بموجة قصيرة هبت من القصة العمالية وشعر الدعاية ، مما يحملنا على أن نحدس بأن الأدب الروسى الحديث سيبدى — حين يتحرر — نفس الخصائص ، وإن كنا نحن لا زلنا فى مرحلة تحول متصل . وشهد العقدان الأخيران نهاية دورة ثقافية طويلة فى أمريكا وبداءة دورة أخرى .

والآن قد يظن أن قواعد حياتنا لم يطرأ عليها إلا قليل من التغيير ، أقل مما كان مفترضاً فى هذه المراحل الصاخبة .

لقد تكسرت موجة المستقبل بقسوة على صخور أوربا وإن كانت لا تزال فى عنف فورتها .

والقيم القديمة للحضارة الاغريقية المسيحية يبدو أن مصيرها البقاء ، مما يعنى أنها قد أثبتت صحتها ؛ وهو مايراه بعضهم غريباً .

ولكن نطاق التجارب اتسع فى أفقه وعنفه إلى الأبد . وتغير جو حياتنا الروحية والفكرية حولنا تغيراً حاسماً . وقد صار القانون الأساسى الذى يسيطر على تجاربنا واسعاً ليطبق على العالم الذى ظهر لنا على غير ما كنا نتوقعه منذ عشرين سنة فقط .

ولذلك فإن كُتّاباً كإمرسون وهويتمان لا زالوا ينفذون بقوة إلى نفوسنا ، ولا زال كتاب هويتمان « سنوات المحدثين » يبدو لنا جديداً يقرأ للآن كأنه كتب فى زمننا ، وكذلك كتابه « رحلة الهند » .

ومن اليسير أن تفهم مقالات إمرسون الآن خيراً مما فهمت فى عصرها ، على أنها مثالية عملية راسخة ، تعانى الهزيمة على الدوام ، ولكنها تهبّ دائماً متجددة ، فى تاريخ الفكر والعمل الامريكى .

والمسألة لا زالت كما صورها هويتمان فى كتاب رحلة الهند « ألم نبتذل أنفسنا هنا طويلا نأكل ونشرب كالبهائم المجردة ؟ إذن فلتبحر بنا السفينة بعيداً ، ولتدر دفتك حيث المياه العميقة فقط ، فإنا نقصد أماكن لم يجرؤ بحار من قبل على أن يطأها بقدميه » .

لـكن أمريكيو اليوم لهم أن يجيبوا أساتذتهم القدامى قائلين « إن هـذا وذاك أشياء لم تعرفوها ، وما كان فى استطاعتكم أن تفهموها . وأن مبادئـكم إذا لم تعدل فإنها تطلق أو تواجه موجات من الأحداث ما كانت لتجول بخاطركم أنتم وغيركم . ربما تنبأتم بما سوف تكون عليه الأمور ، ولـكن هـذه الأمور ذاتها : العلم الطبيعى والصناعة ، وطغيان الحرمان المسلح ، والسهولة التى يتغلب بها المجرم على البرىء ، هـذه أقطاب من الخير والشر تمتزج وهى كشياطين «ملتون» تحتاج إلى تعاليم جديدة لاستخدامها أو إخضاعها » .

ليس من مهمة الفن أن يمدنا بهـذا الفقه الجديد ، ولـكن الفن ، وخاصة الأدب ، يصلح تماماً لتسجيل ما يطرأ من تغيير . والـكتب التى صدرت خلال ربع القرن هذا تحوى مجرد ظلال للحقيقة ولـكنها تنبىء عن شروق الشمس .

ترجمة محمد عوده — هنرى سايدل كانبى